الغزو المعماري المعاصر للمورث العمراني في مدينة الموصل القديمة

أ.د. صلاح حميد الجنابي

كلية التربية – جامعة الموصل

مدخل :

أني أرى مدينة الموصل القديمة كالرجل الاسطوري المسن على الرغم من تقادم الزمن عليه مازال منتصباً من دون كلل ، غارساً أقدامه بثقة في عمق التاريخ ، وكأن الله سبحانه وتعالى هيأ له أرضية صلبة من الفرش الموصلي ، لكن ثقل السنون عليه وعاتيات المناخ القاري المتطرف قد نالت منه ، فأنحنى ظهره وتقوست عظامه ورسمت على محياة خدوش وجروح أراها أوسمة يتحلى بها متفاخراً بمواقف الأباء التي وقفها أمام الغزو الشعوبي .

وعلى الرغم من ارتعاش ذراعيه لكنه ما زال يحتضن بحنو ثمان وثلاثين محلة سكنية ، قسم منها تعرض إلى غزو المعاصرة فاخترقت اساقيتها الحادة هذه الوحدة المتناغمة لتقطع أوصالها بشبكة حديثة من الشوارع ، لكن ذلك لم يقض مضجعه بالعثر الذي من جعل عينيه ترتو ذابله إلى المارد الكونكريتي الذي بدأ يتغلغل إلى أوردته وشراينه ، ويضغط بهياكله الفولاذية على أطراف قدميه التي تضخمت من فرط تشيع موطئها بالمياه الجوفية . ويرتقي فوق هامته ليهين كرامته ويجعل ستره مكشوفة ومحارمه ممزقة . وأخذ شيخنا يئن ولا من مغيث ، وكأن أنينه يبث بموجات فوق الصوتية لا تقوى الأذن البشرية على سماعها ، وكأن ارتعاشه يتحول إلى موجات زلزالية تتعمق في جوف الأرض التي تربى فوقها وهي ملاذه الأخير . وفعلاً بتأثير الظاهرة الكارستيه تحت أقدامه أخذ شيخنا بالتمايل والغوص التدريجي مع كل ارتفاع لمستوى المياه الجوفية ، وتكرار أهتزاز أوصاله بتأثير حركة وسائط النقل داخل أوردته وشراينه ، وغزا الشيب

هامته من أثر التلوث، وافرغت خلاياه من أبناءه بعد أن غـزو عليـه بالادامـة والترميم وأنزاحوا متسارعين بعيداً عنه تستقطبهم حضارة الكونكريت المعاصـرة وعند ذلك لم يبقى أمام هذا الشيخ إلا خياراً واحداً هو الانزواء مجبراً خلف جدران المارد الجديد . وهو يرى كيف تجاوز على سمائه ، فحجب عنه قشها، وأغلـف عليه شمسه وهواءه النقي. وبدأ يتمتم لوداع حضارة صارعت الزمن لأكثر مـن عشرين قرناً ، وصار قاب قوسين أو أدنى من إعلان عجزه أمام هذا الجبـروت المتمادي في سحق كل ما يمت بصلة إلى الموروث الحضـاري ، وكـأن هـذا الموروث يثير في أنفه حساسية لا يمكن تجاوزها إلا بالتمادي في العولمة المادية والمعمارية . وفي النتيجة ألبس هذا المارد شيخنا المحتضر رداءاً معاصراً يحوي داخله بقايا موروث سرعان ما يتسامى ويكون أثراً بعـد عـين ونكـون جميعـاً متسمرين في مواقعنا شواهد على قبره ، وسيأتي اليوم الذي تنزوي فيه جيلين أمام الأجيال القادمة عندما تسألنا عن الدوافع التي كانت وساء عقوقنا لسلفنا الذي يا ما أرخته كتب التاريخ بمواد من نور.

مورفولوجية مدينة الموصل القديمة :

تعني المورفولوجية Morphologie للمدينة ، الشكل الذي تعكسـه فـي تركيبها العمراني والمتأتي من خلق نماذجـاً أو أشـكالاً ماديـة فـي مظهرهـا الحضاري[١] . أو بعبارة أخرى هو الشكل المرئي في المدينة الذي يتكـون مـن خطة المدينة ونمط أشكال الأبنية ونمط استعمالات الأرض ، أي هو المظهـر او الشكل الخارجي للمدينة والذي يمكن ملاحظته عند التجوال في المدينة[٢].

تبلغ مساحة مدينة الموصل القديمة ٣,٨كم٢[٣] . هي ذات شـكل دائـري شأنها شأن المدن العراقية القديمة والمدن الإسلامية . ونظراً لموقعها علـى نهـر دجلة فإنها استطالت في حيزها المساحي مع مجرى النهـر لتكـون ذات شـكل بيضوي أكثر مما هي بالشكل الدائري وتتوطن في حيز واحد على الجانب الأيمن لنهر دجلة متقابلة مع مدينة نينوى التي شكلت معها فـي فتـرة مبكـرة نموذجـاً

لمدن التوائم . وبعد انهيار مدينة نينوى في ٦١٣ ق.م بقيت مدينة الموصل مدينة متوالدة من المدينة الأم ، وازدهرت بعد أن ورثت الأهمية المكانية المركزية لمدينة نينوى.

وتعد خطة مدينة الموصل القديمة من الخطط العضوية (الطبيعية أو المعوية) حيث تتكون من بلوكات سكنية مختلفة الأحجام والأشكال ، تفصل فيما بينها شوارعاً بثلاث مستويات[٤] غير واضحة الاتجاه ملتوية وفي بعض الأحيان أزقة مغلقة (عمياء) . وأن جميع مفاصلها موجهة باتجاه مركز المدينة الاقتصادي وبالتالي باتجاه مجرى نهر دجلة ، وكأنها بمورفولوجيتها هذه تحتضن سكانها بحرص خوفاً عليهم من عاتيات مناطق الظهر . حيث كانت مدينة الموصل تمثل نقطة مشعة تستهوي كل مغامر وطموح في السيطرة عليها على مدار عمرها الطويل. ولا يحمل موضع المدينة شكلاً متجانساً ، بل هو عبارة عن هضبة مصطبية تتدرج من الغرب إلى الشرق ، ومن الشمال إلى الجنوب . هذا الأمر جعلها ذات خط أفق متباين بين مناطق عالية المستوى كما في المناطق الشمالية والغربية ، ومناطق حضيض تقترب من سرير النهر كما في المناطق الجنوبية الشرقية عند حملات باب الطوب والشيخ عمر[٥] . أن هذا الوضع المورفولوجي لأرض مدينة الموصل القديمة سهل عملية تصريف مياه المدينة والأمطار باتجاه نهر دجلة وبذات الوقت وجهة المدينة بكاملها إلى نهر دجلة معيار بقائها وديمومتها، كما سهل دخول الرياح الرطبة من مجرى النهر إلى محلات المدينة لتلطيف مناخها المحلي ، خاصة في فصل الصيف الفائض والطويل.

وتحتل أرض المدينة القديمة (٣٨) محلة سكنية هي استمرار لمحلات المدينة من مدة نضجها حتى الوقت الحاضر، وأن هذه المحلات تختلف في أشكالها وأحجامها . ولكنها على العموم محلات صغيرة المساحة متداخلة من الصعب فصلها موقعياً إلا في الخرائط وذلك بتاثير خاصية الأتكاء والتداخل التي درجت

المدينة على بناء وحداتها الوظيفية وعدم وضوح أشكال بلوكاتها واتجاهات شوارعها وأزقتها .

ويغلب على بيوت المدينة صفة المساحات الصغيرة نظراً للاستغلال المفرط لوحدة المساحة المحدودة للمدينة والمحصورة قسراً بسور المدينة وخندقها اللذان استمرا إلى العقود الأولى من القرن العشرين . ويغلب الطابع الشرقي على بيوت المدينة ، حيث تطل على الشوارع والأزقة بواجهات صماء خاصة في طابقيا الأرضي . ويتفتح البيت الموصلي بمجموعة نحو الداخل لتأكيد الخصوصية والعزلة والأمان ، ويكون بذلك أكثر تأهيلاً لاحتضان ساكني البيت بوحدة سكانية ذات عوائل مركبة أو متصلة أن هذا يعني أن بيوت الموصل القديمة هي نموذج للخصوصية المفرطة ، الا أنه بحكم ابتعاد القطع السكنية عن صفة التجانس والأشكال الهندسية ، فأن صفة المجاورة كانت متعددة . وبتأثير صفة الاتكاء فأن علاقات الجيرة كانت قوية على أن تكون موجهة من داخلية البيت وليس من مخارجه.

ولما كانت المدينة هي بنت موقعها ، فأن مواد البناء المستخدمة متوفرة في ظهيرها القريب مثل حجر الكلس والمرمر الموصلي ، ويستخدم الجص كمادة رابطة لمواد البناء وقد استلهم المعمار الموصلي مورفولوجية البيت بتوائم فريد مع خصائص المناخ ، فالعزل واضح جداً في مواد البناء المستخدمة ، وعرض الجدران واستخدام القباب للتسقيف . كل تلك المتغيرات مثلت حالة عزل حراري وضوضائي للوحدات السكنية ، وركزت حالة الخصوصية التي أشرنا إليها سابقاً، لكنيا من خلال التقادم الزمني اثبتت أن مقاومتها للمناخ الرطب محدودة نظراً لقدرة الرطوبة – سواء الجوية أم الأرضية – على اذابة تلك المواد وسرعة تدهورها مما أنعكس سلباً على المدينة . حيث أثبتت الدراسات الأكاديمية أن نسبة التدهور في عام ١٩٩٩ تجاوز نسبة ١٠% من عدد وحداتها الوظيفية . وقد يتجاوز هذه النسبة الـ ٢٠% في بعض محلات الموصل القديمة[٦] . زد على ذلك

أن المدينة تستقر على ضمور تتأثر بسرعة بالرطوبة حيث تكون مقاومتها لعمليات الإذابة ضعيفة[٧] ، مما سهل تكوين ظاهرة كارستية أسفل المدينة تمثلت بالفواصل والشقوق والفجوان مما جعلها ذات قابلية محدودة على تحمل ثقل المباني فزاد من تشقق جدرانها وانخساف أرضيتها . كما أن ارتفاع نسبة الطين في أرض المدينة ترك اثر بين سلين على المدينة القديمة ، أولهما قابليته العدلية على الانتفاخ بالرطوبة مما يجعل الجدران العريضة غير ملائمة لبناء الوحدات الوظيفية لأن الضغط الناتج عن الانتفاخ يكون موزعاً على أطار مساحي أكبر ، وثانيهما أن هذه التربة تتعرض إلى عملية التشقق في مواسم الجفاف . ويتأثر عملية النقدية الريحية تتجمع الرمال في هذه الشقوق ، وعند التآم جروح الأرض في فصل الشتاء تتكون ممرات عدسية تسهل من تنافذ مياه الأمطار والمياه الأرضية وتسرع عمليات الإذابة في التربة .

أهمية المدينة القديمة للحيز الحضري لمدينة الموصل الكبرى :

تعد مدينة الموصل من المدن المزدوجة التركيب فهي من جانب مدينة تراثية عاصرت حقباً زمنية طويلة ترقى الى حقب الحضارات العراقية القديمة ، وبقيت مستقرة في موضعها الأول لم تنحاز عنه خاصة بعدما حدد إطارها الموضعي بالسور والخندق . أن هذا الإرث الحضاري مازال شاخصاً في إطارها المكاني القديم ، ونظراً لا أهميتها المركزية استقطبت أعداداً متزايدة من السكان إلى الدرجة التي أصبح فيها الحيز القديم غير قادر على استيعاب سكانها ومتطلباتهم الوظيفية مما جعلها تتجاوز إطارها القديم بأنماط من التوسع التراكمي والارتعاجي واللؤلؤي والمحوري والسديمي والإملائي المخطط[٨] . وعلى الرغم من أن المدينة القديمة لا تشكل سوى ٢% من مساحة المدينة الكبرى لكنها لازالت تشكل سويداء الحيز الحضري وواسطة العقد للمدينة وتأتي أهميتها من اعتبارات عدة لعل أهمها :

١ - الديمومة التاريخية :

تشير كل الدراسات التي اهتمت بمدينة الموصل بأنها حافظت على ديمومتها في ضمن الموضع الذي تسيطر عليه مدينة الموصل القديمة الحالية . واستمر البناء في هذا الموضع على أساس التراكم المكاني طوراً بعد آخر . وقد حافظت المدينة القديمة على مورفولوجيتها التي أشرنا إليها في الصفحات السابقة. الأمر الذي جعل عبق التاريخ سارياً في أزقتها الملتوية ووحداتها السكنية حتى الوقت الحاضر . أن هذا الأرث الحضاري لا يظهر في أي جزء آخر في المدينة الكبرى مما جعل المدينة القديمة تنفرد فيه ويترك أثرها الاجتماعي والنفسي على سكان المدينة الأصيلين الذين أفنوا جزءاً من عمرهم في محلاتها ومؤسساتها.

٢ - المعيار المكاني :

تسيطر مدينة الموصل القديمة على أكبر المواقع مركزية في المدينة ، فهي تحتل تقريباً المركز الجغرافي للحيز الحضري على الرغم من اتساع المدينة الكبرى في إطارات تراكمية حول الحيز القديم ومن ثم محورية ، وانتقال أجزاء من الحيز الحضري إلى الجانب الأيسر بأنماط من النمو القافز واللؤلؤي والمحوري والإملائي . لكن بقيت المدينة المركزية تحتل من الناحية المكانية مركز الحيز الحضري وسويداءه[٩] . وما الأحياء الجديدة إلا توابع في فلك هذا المركز .

ونظراً للأهمية المكانية للمدينة القديمة فقد استقلت جزءاً مهمة منها في الاستعمال التجاري على شكل أسواق مركزية وأشرطة تجارية . وأن هذا الاستعمال لا يستوطن إلا إذا توفرت سهولة الوصول من كل أجزاء المدينة الأمر الذي جعل هذا الجزء من المدينة مرغوب للاستقلال من كل الاستعمالات مما نتج من ذلك ، سيطرق هذا الموضوع من أعلى المواقع في المدينة قيمة إذا ما علمنا أن الأرض سلعة غير قابلة للنقل وتكمن قيمتها في موقعها[١٠] . ولو استعرضنا الدراسات المهتمة بقيمة الأرض الحضرية نجد أن جميعها تؤكد سيطرة

مركز المدينة على أعلى قيمة حضرية ، ومن ثم نتدرج القيمة متنازلة باتجاه الأطراف الريفية الحضرية[١١].

ونظراً للأهمية المكانية هذه فأن الكثير من المؤسسات الوظيفية والإدارية توطنت في ضمن المنطقة القديمة أو عقد هوامشها مما زاد من الأهمية المركزية للمدينة القديمة . وأن بؤرة السيطرة الوظيفية في المدينة القديمة نشأت وتطورت تلقائياً في داخل المدينة[١٢] . ولكن كل الدلائل تؤشر أن مدينة الموصل تعد مركز هيمنة تتوضح فيه كل الخصائص الفيزيقية والاجتماعية التي تميزها عن غيرها من أجزاء المدينة[١٣] . أن هذه المواصفات المكانية والوظيفية لمدينة الموصل جعلها منطقة الاكيدوميون الحضري في مدينة الموصل الكبرى[١٤] .

مراحل الغزو المعماري المعاصر للمدينة القديمة :

الغزو هو ظاهرة اجتماعية تمارس في المدينة شأنها شأن الظاهرات الاجتماعية الأخرى كالتركز والتخصص والتتابع والسيطرة والتدرج ، لكنها أكثر وضوحاً من غيرها لأنها تعمل في ضمن محوريين أساسيين هما محور الغزو السكاني ومحور الغزو الوظيفي . وأن ما يهمنا في هذا البحث هو المحور المكاني . وتقصد به انتهاك مكاني لاستعمال جديد لموضع لاستعمال سابق[١٥] . ويعمل هذا النمط من الغزو في اتجاهين هما غزو وظيفي يقوم على إحلال استعمال محل استعمال سابق مثلاً إحلال الاستعمال التجاري أو الصناعي أو الإداري محل الاستعمال السكاني ، أو إحلال الاستعمال السكاني محل الاستعمال الزراعي عند نطاق الأطراف الريفية – الحضرية . أن هذا النمط من الغزو مرهون بقدرة الوظائف على دفع أعلى القيم والإيجارات . وهذا يمكن ملاحظته في كل أجزاء المدينة لكنه أكثر وضوحاً في البؤرة المركزية للمدينة أو على امتداد الشوارع الرئيسة أو في مناطق الأركان . وهذا النمط من الغزو لا يدخل في ضمن اتجاه هذا البحث[١٥] . بل يكون تركيزها على الاتجاه الثاني وهو الغزو المعماري الذي يتمحور حول التغير في أنماط المباني وارتفاعها ومن ثم ارتفاع خط سماء المدينة.

ويحدث هذا النمط استجابة لتطور أساس المدينة الاقتصادي من خلال ارتفاع الأهمية المركزية للمدينة وارتفاع المستوى المعاشي وقيمة الأرض الحضرية . ويتخذ هذا النمط من الغزو صنفين ، غزو شريطي يمتد متطاولاً مع واجهات الشوارع الرئيسة والثانوية ، ونجده أكثر شيوعاً وانتشاراً على الحيز الحضري . وآخر قطاعي يستقل معظم أرضية البلوك نجده قسراً في منطقة الأعمال المركزية أو عند هوامشها .

وفي ضوء ذلك تستطيع أن نميز مراحل الغزو المعماري الحديث بمتغيرين أساسيين هما :

١ - مرحلة تقطيع الحيز الحضري بشبكة جديدة من الشوارع .

جرت منذ ومطلع القرن العشرين إجراءات لفتح الأنغلاق الذي تعاني منه مدينة الموصل القديمة بتأثير نظام شوارعها العضوي المتوافق في حينه مع خصائص المدينة التراثية لاعتبارات مكانية واجتماعية ومناخية وستراتيجية . ويمكن ملاحظة فتح تلك الشوارع ابتداءً من العقد الأول من القرن العشرين مثل شوارع الصوافة وابن الأثير والعدالة . وشوارع أخرى فتحت في العقد الثاني ولاسيما في عام ١٩١٤ مثل شوارع نينوى والنجفي والنبي جرجيس . وشهد العقد الثالث فتح شارع غازي فقط . وفي الثلاثينيات من القرن العشرين تم فتح شوارع الفاروق وخزرج والصديق . وفي الأربعينيات تم فتح شارع المكاوي جثت شوارع أخرى مجاورة للحيز القديم مثل شارع الدواسة والإمام علي والنبي شيت ، وفي الخمسينيات تم فتح شارع الجامع الكبير وخير الدين العمري[١٦] .

لقد كان مجموع أطول الطرق التي فتحت داخل الحيز القديم ١٨,٦كم وبأتساع متباين يتراوح بين ١٠م كما في شارع النجفي و ٣٠ متراً كما في شارعي الصديق وخير الدين العمري[١٧] . أن هذا القطع في تنفيذ هذه الشوارع ترك أثره السلبي على الوحدات السكنية التي طالها مرور الشوارع ، ولكن في الوقت ذاته رفع من قيمة الأراضي المحيطة بالشوارع وعلى امتداد يقرب من

٣٠كم على جانبي الشوارع . ونظراً لارتفاع قيمة الأرض على امتداد الشوارع فأن البناء الجديد لابد أن يكون بكثافة أعلى تعويضاً عن قيمة الأرض المرتفعة. ولم يتم تغير الواجهات بشكل متكامل تبعاً لأهمية الشارع الموقعية ودرجة المنافسة على استثمار جوانبه ومقدار الفضلات المتروكة على جانبي الشارع لذلك بعض الشوارع استكمل بناء جوانبها باستخدام جديد ، وبعضها الآخر مازال على وضعه القديم المتدهور كما في بعض جوانب شارع الفاروق والمكاوي والنبي جرجيس في حين غطت المباني العالية المنظور التراثي في شوارع السوق العصري وخالد بن الوليد ونينوى .

أن التأثير لا يقتصر على حجب المنظور التراثي بل أوجد ما يصطلح عليه بالشوارع الخلفية حيث أصبحت المناطق الواقعة خلف الأطار الجديد ومناطق متلوفة بسبب عدم التجانس والتوائم بين البناء الجديد وما تبقى من بناء تقليدي . إضافة إلى أن بعض القطع أصبحت بشكل غير ملائم للاستثمار الحضري متحولة إلى مناطق لرمي النفايات أو مناطق مغروسة .

٢ - مرحلة الغزو الوظيفي المتسارع :

أن الصفة الدينامية للمركز الحضري بحكم تغير الأداء الوظيفي واتساع احجام المدن وأثر السياسات التخطيطية تجعل الفعاليات الحضرية المتخصصة لا تبقى مكراً على موضع معين تتعامل معه بحكم الاستمرار التاريخي بل تتحول من مواصدتها . أن التغير الوظيفي التأريخي ومتغيرات أخرى تؤثر قطعاً من قيمة الأرض الحضرية على المستويين الجزئي والكلي وتؤدي بالمحصلة النهائية إلى أضمحلال الطلب على وحدات مساحية في مواضع معينة من المدينة ، وكثيراً من المناطق المركزية التي كانت في حقبة تاريخية سابقة تنبض بالحياة ، أصبحت الآن أنقاضاً ومناطق متلوفة بعد أن فقدت أهميتها المركزية وأخذ التداعي والتلف يغلف أوصالها في حين عادت الحياة إلى مناطق أخرى كانت في يوم من الأيام منسية ولكنها الآن تشكل أعلى خط أفق في المدينة ، وأن هذا التغير في

استعمالات الأرض جاء من عامل المنافسة المتزايدة كلما تطورت المدينة وأزداد أساسها الاقتصادي فوق . ونحن نعلم أن أرض المركز الحضري سلعة غير قابلة للنقل ، فأن قيمتها تكمن في موقعها.

ولما كانت مدينة الموصل لا تشغل في نهاية النصف الأول من القرن الماضي سوى حيزاً لا يتجاوز ٤ كم٢ وأن سكانها جميعهم يستقرون في محلات المدينة القديمة ، فأن أهميتها المركزية كانت متواضعة منعكسة على قيمة الأرض الحضرية وبالذات منطقة السوق الموروث . وبعبارة أخرى أن مفردات المجتمع الحضري كانت متواضعة في عددها ومراتبها الحجمية ومن ثم كان الطلب على وحدة المساحة محدوداً .

وبعد الانفجار السكاني للمدينة من (١٧٨٢٢٢) في عام ١٩٥٧[١٨] إلى (١١٢٠٥٥٢) حسب اسقاطات السكان لعام ٢٠٠٠[١٩] . وسيطرتها على ٢٠٥كم٢ للمدينة الكبرى بعد أن كانت ٣,٨ كم٢ في عام ١٩٤٧ . أن هذا الإنفجار السكاني والمساحي كان من وراء متغيرات ديموغرافية وهجرة وعمليات القيم فضلاً عن التطور في الحياة الحضرية الأمر الذي جعل عملية المنافس على استعمالات الأرض واردة متخذة مستويات يحددها قدرة الاستعمال على دفع أعلى قيمة وإيجار . أن أكثر المناطق التي تتعرض لعملية المنافس هي المواقع المركزية أو قويات النشاط الاقتصادي . ويظهر ناتج هذه المنافسة في عمليات الغزو الوظيفي.

ويعد الاستعمال التجاري من أكثر استعمالات قدرة على المنافسة من باقي استعمالات المركز الحضري ، ولذلك يكسب المنافسة في اختيار المواضع التي يرغبها . ولما كانت المنطقة التجارية المركزية لمدينة الموصل تحتل حيزاً مهماً من المدينة القديمة عندها توضحت معالم الغزو التجاري للمناطق السكنية المجاورة للسوق الموروث ولواجهات الشوارع الرئيسة المجاورة التي تجاور السوق الموروث وعادة تكون واجهات الشوارع الرئيسة أعلى قيمة من المناطق الداخلية

الأمر الذي جعلها أعلى قيمة . وتعويضاً لقيمة الأرض العالية فأنه لا خيار باستثمارها إلا عمودياً .

واتخذ الغزو شكلا شريطياً على جانبي الطرق التي تخترق معظم الأعمال المركزية مثل شوارع نينوى واحمد السوري وخالد بن الوليد والعدالة والسوق العصري أو أن الغزو طال شوارع رئيسة تمتد عند هوامش المنطقة المركزية مثل شوارع الدواسة والكورنيش وبعض أجزاء شوارع النبي جرجيس والجامع الكبير والجمهورية وشارع حلب.

ولم يقتصر هذا الغزو على هذا النمط الشريطي ، بل اتخذ أشكالاً نطاقية في مناطق متعددة عندما يزال الموروث القديم أو يترك إلى حالة الاندراس ومن ثم تجديده ببناء معاصر على شكل نطاقي والأمثلة كثيرة في المناطق الداخلة ضمن منطقة الأعمال المركزية أو عند هوامشها .

٣ - مرحلة التدهور في الموروث العمراني :

توصلت الدراسات الأكاديمية إلى أن التدهور في مدينة الموصل القديمة له أسبابه الطبيعية والبشرية فضلاً عن التقادم الزمني . ويحق الآن لسنا بصدد المتغيرات الطبيعية للتدهور وإنما ببعض المتغيرات البشرية ولاسيما في متغيرات القطع بتأثير فتح الشوارع الجديدة داخل الحيز القديم وعمليات الغزو الوظيفي. فبالنسبة لعامل القطع نجده قد طال معظم المحلات السكنية وبنسبة عامة بلغت ١٤,٨% في عموم المدينة لكنه اختلف من محلة الأخرى بتأثير نسبة تنفيذ عمليات القطع هذه . ونظراً لأن منطقة الأعمال المركزية ومجاوراتها نالت الحصة الأكبر في فتح تلك الشوارع فأننا نجد تأثير هذا المتغير عالياً فيها فمثلاً بلغت نسبة تأثير هذا المتغير ٣٥,٦% ، ٣٢,٩% ، ٣٠,٥% ، ٢٩,٩% في محلات باب الطوب والشيخ فتحي والأحمدية وإمام محمد الدين على التوالي(٢٠) .

أما تأثير عمليات الغزو الوظيفي في التدهور فأنها نجده متوافقاً مع فتح تلك الشوارع فالمناطق المركزية طالها الغزو الوظيفي على شكل قوالب كونكريتية

متطاولة على الاستعمالات السكنية التي تقع خلفها . وأصبحت أكثر من غيرها عرضة التدهور للأسباب الآتية :

أ - وقوعها في استعمال غازي عمودي جعلها بواقعها القائم لا توافر الساكن الحضري المرونة في الحركة والحرية في استثمار وحداتها السكنية ، وحتى أن جرى عليها إعادة تأهيل لا تستطيع مجارات المحاور الرئيسة المرتفعة .

ب - بتأثير الغزو الوظيفي (ولاسيما التجاري) إزالة عنها خاصية الاتكاء وجعلها عرضة للتدهور.

ج - أن البناء العالي حجب عنها قبة السماء وخاصة التشميس والحركة المرنة للهواء النقي وجعلها داخل جزرات حرارية ، ومؤهلة لفقاعات حضرية محلية.

د - أن بعض أصحاب الوحدات السكنية أخلو مساكنهم لأنهم أصبحوا غير قادرين في الاستقرار تحت طائل هذه البؤرة الوظيفية .

هـ - بعض أصحاب الوحدات السكنية تركوا وحداتهم على أمل زحف الاستعمال التجاري عليها واستثمارها باسعار مغرية .

وفي ضوء تلك الاعتبارات تزايدت المناطق المتدهورة والمندرسة في المناطق المجاورة لمناطق الغزو الوظيفي ، فعلى الرغم من أن نسبة التدهور العامة في المدينة القديمة بلغت ١٠,٣% فإن بعض المحلات ارتفعت فيها النسبة إلى ٢٦,٢% في محلة الميدان ، ٢١,٦% في محلة إمام إبراهيم و ٢٠,٥% في السر و ٢٠,٣% في الرابعية و ٢٠,٢% في محلة باب الطوب[٢١].

الانعكاسات السلبية :

أن هذا الصراع بين استعمالات الأرض في المدن التي تعيش حالة الأزدواجية في العينة يظهر باجلى صوره في مدينة الموصل ، فهي ما جلست

تحمل في داخله موروث حضاري قديم ، واستعمالات معاصرة لمواقف مع الأهمية المركزية والوظيفية لمدينة تحتل المرتبة الثانية في السلم الطبقي للمدن العراقية ، وعاصمة إقليمية للمنطقة الشمالية من دون منازع .

وأن عمليات الغزو بانماطها الوظيفية والسكانية للحيز القديم قد ترك أثره السلبي في مناحي متعددة في المدينة . لكنه يمكن وضع التأثيرات السلبية في المناحي الثلاثة التالية :

١ - الإسراع في عملية التدهور :

تؤشر الدراسات الأكاديمية المعاصرة أن عملية التدهور حالة واردة في بعض أجزاء المدن المزدوجة المبنية ، وبالذات في أجزائها القديمة ، وعلى الرغم من أن مسببات التدهور في المدن قد يكون بتأثيرات طبيعية أو بتاثيرات بشرية. فضلاً عن عامل التقادم الزمني ، ولكن يظهر تأثير المتغيرات البشرية بوضوح أكبر بتأثير عمليات القطع ، والتغير في واجهات الشوارع ، والتغير في نمط الاستخدام الناتج عن عمليات الغزو الوظيفي لصالح الاستخدام القادر على دفع أعلى الإيجارات والذي أنعكس في عملية المنافسة بين الاستعمالات التي تنحاز قسراً في مدينة الموصل القديمة لصالح الاستعمالات التجارية والاستعمالات الوظيفية الأخرى المتكاملة معها . وقد حددت نسبة التدهور في الأحياء التي تحتلها منطقة الأعمال المركزية ومجاورتها (الجدول رقم ١) .

جدول رقم (١)
النسبة المئوية لتأثير متغيرات الغزو الوظيفي في إحياء منطقة الأعمال المركزية وتجاوراتها[٢٢]

اسم المحلة	% للتدهور	بتأثير القطع %	تغير الواجهات %	تغير الاستخدام %	المنافسة %	المجموع %
السرجخانة	٢٠,٥	٢٧,٥	١١,٨	٢٤,٩	١١,٩	٧٦,١
باب السراي	١٧,٩	٩,٨	٤٦,٤	١٣,٩	١٣,٩	٨٤,٠
باب الطوب	٢٠,٢	٣٥,٦	١١,٤	٩,٦	٩,٤	٦٦,٠
الشيخ عمر	٩,٠	٢٥,٩	١٣,٤	١٤,٧	١٠,٤	٦٤,٤
باب اكش	١١,٠	١٨,٦	١٠,٧	٨,٥	٧,٥	٤٥,٤
الشيخ محمد	٨,٦	١٧,٩	١٠,٨	٥,٨	١٠,٥	٤٥,٤
إمام عون الدين	٨,٠	٢٩,٩	١٣,٨	٣,٧	١٢,٧	٦٠,١
شيخ أبو العلا	١٣,٨	١٨,٥	١٤,٣	٦,٤	١٣,٦	٥٢,٨
جامع خزام	١٧,٣	١٧,٦	٩,٩	١١,٨	٤,٥	٤٣,٨
سوق الصغير	١٠,٧	٢٣,٥	١٩,٣	١٥,٦	٣,٧	٦٢,٤
عمو البقال	٢٥,١	٢٥,٥	٢٨,١	٦,٤	٩,٢	٦٩,٤
حوش الخان	٩,٦	٢٦,٧	١٠,٦	٧,١	٨,٤	٤٧,٨
الميدان	٢٦,٢	١,٤	٥,١	٤,٤	٦,٢	١٧,١
الجامع الكبير	١٦,٢	١٤,٣	٦,٥	١٢,٢	٨,٠	٤١,٤
باب النبي	٨,١	٧,٥	٥,٢	٣,٨	٥,١	٢١,٦

يظهر من الجدول أن الشبه العامة للتهرؤ عالية في عموم المحلات التي يحتلها السوق المركزي ومجاوراته . ولكن التدهور في مستوياته العليا يكون في المحلات التي تقع عند هوامش منطقة الأعمال المركزية ، (خريطة رقم ١) كما يظهر عن الجدول أن أعلى مستويات التدهور كانت بتأثير عمليات القطع وتأتي محلات السرجخانة وباب السراي في أعلى مستويات التدهور بتأثير الغزو الوظيفي تليها محلات عمو البقال وباب الطوب والشيخ عمر وإمام عون الدين والسوق الصغير بمستويات عالية أيضاً . وتبدو المحلات التي تعرضت إلى الغزو الوظيفي من وقت مبكر بمستويات تدهور بتأثير عمليات الغزو بمستوى متوسط. وهذا منطقياً لأن الغزو المبكر قد استثمر أجزاء أساسية من تلك المحلات بالأشكال الجديد ولم يبقى من الاستخدام التقليدي إلا جزرات صغيرة متناثرة داخل تلك الأحياء.

وللتدليل على أن تلك المحلات قد استنفدت المناطق التراثية بالاستعمال الوظيفي الغازي استخدم معيار درجة العقوبة للتدليل على سيطرت الاستعمال المعاصر[٢٢] وكلما كانت درجة العقابة موجبة كان ذلك دليلاً على توطن الغزو في أكبر حيز من المحلة ، في حين تكون درجة العناية سالبة في المحلات التي كان الغزو المعاصر لم يطال إلا جزءاً محدوداً من الحي السكني . وعموماً تنخفض درجة العناية في المحلات التي تقع في إطار محيط بمنطقة الاعمال المركزية باستثناء محلة السوق الصغير المركزية نظراً لأن الغزو طال هامشها المطلة على شوارع نينوى ، وأحمد السوري وخالد بن الوليد وسوق ال التي تحيط المحلة من جهاتها الأربعة . (أنظر جدول رقم ٢ وخريطة رقم ٣) .

جدول رقم (٢)
درجة العناية في محلات الموصل القديمة المتعرضة إلى الغزو المعاصر[٢٣]

اسم المحلة	درجة العناية	اسم المحلة	درجة العناية
السرجخانة	٥,٧٨	جامع خزام	١,٣٥
باب السراي	٦,٤٩	سوق الصغير	-٢,٢٣
باب الطوب	٧,٨٦	عمو البقال	-١٩,٩٩
الشيخ عمر	١٢,٩٥	حوش الخان	١١,٢٧
باب لكش	٤,٧	ارايدان	-٢٦,٨٧
الشيخ محمد	٧,٠٤	الجامع الكبير	٧,٤
إمام عون الدين	-٦,٠٩	باب القيمي	١٣,٥٩
شيخ أبو العلا	٦,٨٤		

٢ - إغلاق المنظور البانورامي للمدينة القديمة :

يتمدد المنظور البانورامي لمدينة الموصل القديمة من خلال :

أ) مورفولوجية المدينة القديمة :

على الرغم من تعدد عناصر المورفولوجية للمدينة لكن المؤثر الأساسي في المنظور هو نمط الشوارع التي تقطع الحيز الحضري ولاسيما الاتكاء في الوحدات الوظيفية التي تشغل الحيز الحضري . فالمدينة القديمة تقطعها شبكة من الشوارع ذات النمط العضوي الطبيعي ، وهذا النمط من الشوارع كان قاسماً مشتركاً للمدن العراقية القديمة وتمتاز بصدقها العام وعدم وضوح اتجاهها كما أن بعضها أزقة مغلقة بأن هذا النمط من الشوارع على الرغم من أنه غير متوافق مع عصر السيارة لكنه لا زال يحمل عبق خاص وقد أثبتت الدراسات الأكاديمية مواءمته مع المناخ القاري الذي يسود على مناخ الموصل - أن هذه الأنماط من الشوارع ويتأثر تقطع الحيز القديم بشبكة من الشوارع المعاصرة استثمرت

واجهاتها بالاستخدامات العمودية مما جعل الشوارع العضوية تعد من الشوارع الخلفية بكل ما يحمله هذا النمط من إيقاع سلبي وبذات الوقت أغلقت مداخل ومخارج هذه الشوارع بالشوارع المعاصرة .

أما خاصية الاتكاء في البناء القديم فهي صفة لازمت مدينة الموصل القديمة وبتأثير عمليات التقطيع حدث خللاً في هذه الخاصية مما زاد في عملية التدهور في المدينة القديمة بسبب عمليات القطع التي سهلت تجدد الوحدات الوظيفية خاصة الاستناد وبذات الوقت تركت أراضي شاغرة خلف واجهات المباني لا تصلح لأي استخدام أو أنها أصبحت أماكن لرمي النفايات.

ب) اختلال مستويات سطح الموضع :

يعد موضع مدينة الموصل جزءاً من هضبة آشور ، ويبدو للناظر بأنه مجموعة من المصاطب المتباينة في ارتفاعها بحيث تظهر مبانيها بمستويات مختلفة تبدو للناظر بأجلى صورها في منطقة القليعات وفي باب البيض – القوقاني وغيرها من الأحياء . وأن الغزو العمودي الحديث القائم والمخطط له سيكون سبباً في إغلاق هذا المنظور البانورامي للمدينة القديمة .

ج) ارتفاع فرص التلوث :

يصيب التلوث جميع عناصر الحياة ويزداد تأثيره في المدن الكبرى نتيجة للتحشيد الوظيفي داخل أطر مساحية محدودة ، وعلى الرغم من سطح مدينة الموصل له فاعلية مؤثرة في عملية التلوث خاصة التلوث الهوائي .

وتتأثر مدينة الموصل بظاهرتين أساسيتين هما الإنقلاب الحراري والفقاعة الحضرية . وكلا الظاهرتين يرتبطان بالضغط العالي وفي كون المدينة جزرة حرارية . أن الضغوط العالية ترتبط في فصل الصيف بوقوع المنطقة تحت تأثير الضغط العالي شبه المداري الذي ينتقل شمالاً مع حركة الشمس الظاهرية خلال هذا الفصل ، أما في فصل الشتاء فيتأثر بالمنخفضات الجوية التي تتعرض لها منطقة الموصل ، وأن المنخفض الجوي يتقدمه وتتحلق عنه نطاقات الضغوط

العالية تكونان سبباً في تكرارات حدوث ظاهري الانقلاب الحراري والفقاعة الحضرية .

وكما أشرنا سابقاً بأن تلك الظاهرتين تستندان في إطارها الخارجي عن ركائز أشرتها الدراسات الأكاديمية تتمثل بالمناطق المرتفعة المحيطة بالمدينة . وبتأثير البناء العمودي المتزايد في البؤرة القديمة وزيادة تركيز الفعاليات الحضرية وحركة وسائط النقل داخل هذه البؤرة ، وقد وفر هذا البناء قواعد اصطناعية جاهزة لمجموعة كبيرة من الجزرات الحرارية الثانوية . وهي على العموم تخلق مجموعة من الفقاعات الحضرية داخل إطار محدود مما يجعل عملية التلوث في ذروتها داخل هذه الفقاعات الحضرية الصغيرة .

ولم يقتصر التلوث في هذا الجانب على التلوث الهوائي بل يطال إلى التلوث المائي وتلوث المنشآت الحضرية بتأثير زيادة احتمالات حدوث الأمطار الحامضية التي سرعت في عملية الإذابة لمواد البناء المستخدمة في المدينة القديمة، تأهيل عن التلوث في المنظور الجمالي للمدينة القديمة .

الهوامش :

١ - خالص حسني الأشعب ، المدينة العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٨٢ ، ص١٨ .

٢ - خالص حسني الأشعب ، وصباح محمود محمد ، مورفولوجية المدينة ، مطبعة جامعة بغداد ، بغداد ١٩٨٣ ص٥.

٣ - فواز عائد جاسم كركجة ، التدهور (التهرؤ) الحضري الشكلي لمدينة الموصل القديمة ، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) كلية التربية ، جامعة الموصل ٢٠٠٠ ص٦٦ .

أ - لقد قدرت هذه المساحة بـ ٣,٣ كم^{٢} بعد طرح مجلة الشفاء من المدينة القديمة : هاشم خضير الجنابي ، التخطيط العمراني في مدينة الموصل ، مجلة التربية والعلم ، العدد ١٢ سنة ١٩٩٣ ص٢٨١.

ب - داود سليم داود عجاج ، الفضل في مدينة الموصل ، دراسة في جغرافية المدن ، اطروحة دكتوراه (غير منشورة) ، كلية التربية - جامعة الموصل ، ١٩٩٧ ، ص.ص. ٣٨-٤٢ .

٤ - فواز عائد جاسم كركجة ، مصدر سابق ، ص١٨٣.

٥ - أنظر في ذلك :

أ - هدية غازي محمد أديب . تركيب وطباقية مدينة الموصل ، الجانب الأيمن ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية العلوم ، قسم علوم الأرض - جامعة الموصل ، ١٩٨٨ ، الملحق.

ب - منهل عبد السلام ، جيولوجية منطقة الموصل شرق نهر دجلة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم علوم الأرض ، كلية العلوم - جامعة الموصل ، ١٩٨٨ ص١٠.

٦ - أنظر هذه الأنماط في :

أ - شيرزاد عبد العزيز عبد الرحيم الفقيه ، التوسع المساحي لمدينة دهوك دراسة في جغرافية المدن ، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة صلاح الدين ، كلية الآداب ١٩٩٩ ص.ص. ١٢-٢٠ .

ب - صلاح حميد الجنابي، الاتساع المساحي للمدن، الآثار القائمة والمتوقعة ، المؤتمر العام الثامن لمنظمة العمل العربية ، الرياض ١٩٨٦ ص.ص. ٥٠٠-٥٠٣ .

7 - C. Clark, Urban population deasites , Journal of the royal statistical society , vol. 114 , 1951 , PP. 490-495 .

٨ - صلاح حميد الجنابي، التباين المكاني لمنطقة الجنوب السكاني في مدينة الموصل ، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية.

9 - Egordon Erickson, "Urban Behavior , New York" 1969 , P.P. 221-229 .

١٠ - أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي ، دراسة تحليلية تكميلية للنظرية الاجتماعية ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص٦٤.

11 - Emmar Llewally and Hakhern Adrey , Human Ecology , in Curvith , George and Moore, Wihbert E. Twentieth century sociology , P. 471.

١٢ - يقصد بمصطلح الأكيدمين "منطقة النقل الاقتصادي والوظيفي" .

١٣ - كامل جاسم حمود المرياتي ، النمو الحضري وأثره في البناء الإيكولوجي لمدينة بغداد ، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) جامعة بغداد ، كلية الآداب ١٩٩٢ ، ص٢٢٢ .

١٤ - هاشم خضير الجنابي ، التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة ، دراسة في جغرافية المدن ، مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٨٢ ، ص٦٣.

١٥ - داود سليم داود ، النقل في مدينة الموصل ، مصدر سابق ، ص٤٦.